الاختلاف في الدين بين البغي والحق

كتبه غريب بتاريخ الأحد ٤ شوال ١٤٤٢

تعتبر مسألة الاختلاف في الدين, أو الخلاف في الدين, من أهم المسائل التي بني عليها دين أهل المذاهب, حيث تقوم المذاهب على اعتبار أن الدين كله محل اختلاف, وأنه لا بأس بالاختلاف ما لم يكن في أصل الدين.

في المقابل ترفض الفطرة, والعقل السليم تعدد الحق, ومن ثم رفض إمكانية الاختلاف في الدين جملة وتفصيلا.

ونظرا لكون الإسلام إنما هو وحي من الله عز وجل, علينا العودة إلي الوحي قرآنا وسنة, لنعرف منزلة الاختلاف في الدين, وأنواعه, وهذا ما سوف نعرفه من خلال المحاور التالية:

- منزلة الإختلاف في الدين في الإسلام
- أنواع الإختلاف في الدين
    - اختلاف بغي بين الناس
    - إختلاف بين المؤمنين

منزلة الإختلاف في الدين في الإسلام

لقد حذر ربنا عز وجل من الفرقة والاختلاف في الدين أيما تحذير, فقد اعتبر الذين فرقوا دينهم بحيث صيّروه طوائف وطرق, كفاراً رسول الله صلى الله عليه وسلم بريء منهم, فقال جل من قائل:

﴿ إِنَّ الَّذينَ فَرَّقوا دينَهُم وَكانوا شِيَعًا لَستَ مِنهُم في شَيءٍ إِنَّما أَمرُهُم إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِما كانوا يَفعَلونَ ﴾

[الأنعام: ١٥٩]

واعتبر المتفرقين والختلفين بعد مجيء البينات لهم كفاراً مرتدين, توعدهم بالعذاب العظيم في قوله:

﴿ وَلا تَكونوا كَالَّذينَ تَفَرَّقوا وَاختَلَفوا مِن بَعدِ ما جاءَهُمُ البَيِّناتُ وَأُولئِكَ لَهُم عَذابٌ عَظيمٌ۝يَومَ تَبيَضُّ وُجوهٌ وَتَسوَدُّ وُجوهٌ فَأَمَّا الَّذينَ اسوَدَّت وُجوهُهُم أَكَفَرتُم بَعدَ إيمانِكُم فَذوقُوا العَذابَ بِما كُنتُم تَكفُرونَ۝وَأَمَّا الَّذينَ ابيَضَّت وُجوهُهُم فَفي رَحمَةِ اللَّهِ هُم فيها خالِدونَ ﴾

[آل عمران: ١٠٥-١٠٧]

لاحظوا قوله:

أَكَفَرتُم بَعدَ إيمانِكُم

فهم أتتهم البينات الواضحة وأقروا بها, ثم كفروا بها حين أعرضوا عنها واتبعوا عقولهم المختلفة فاختلفوا والعياذ بالله من الزيغ والضلال.

الاختلاف والشرك في الغالب متلازمان, لأنه في حقيقة الأمر اتباع للهوى غالبا كما سوف نرى لاحقا إن شاء الله, لذلك قال ربنا عز وجل:

﴿ مُنيبينَ إِلَيهِ وَاتَّقوهُ وَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكونوا مِنَ المُشرِكينَ۝مِنَ الَّذينَ فَرَّقوا دينَهُم وَكانوا شِيَعًا كُلُّ حِزبٍ بِما لَدَيهِم فَرِحونَ ﴾

[الروم: ٣١-٣٢]

أنواع الإختلاف في الدين

نتيجة للآيات الكثيرة التي حذرت من الاختلاف, يعتقد كثير من أتباع الوحي أنه لا يوجد إلا نوع واحد, من الاختلاف, وهو الكفر, وأن كل اختلاف يعني كفر وإيمان, فلابد أن يكون أحد المختلفين مؤمناً, والآخر كافراً.

إذا رجعنا للوحي نجد أن هذا التصور ليس صحيح مطلقا, فالاختلاف ليس نوعا واحدا وإنما هو نوعين, بينهما ربنا سبحانه وتعالى في قوله:

﴿ كانَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيّينَ مُبَشِّرينَ وَمُنذِرينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكِتابَ بِالحَقِّ لِيَحكُمَ بَينَ النّاسِ فيمَا اختَلَفوا فيهِ وَمَا اختَلَفَ فيهِ إِلَّا الَّذينَ أوتوهُ مِن بَعدِ ما جاءَتهُمُ البَيِّناتُ بَغيًا بَينَهُم فَهَدَى اللَّهُ الَّذينَ آمَنوا لِمَا اختَلَفوا فيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذنِهِ وَاللَّهُ يَهدي مَن يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُستَقيمٍ ﴾

[البقرة: ٢١٣]

ففي هذه الآية ذكر ربنا أن جل الإختلاف إنما هو بغي بين الناس, وذكر أيضا أنه قد يكون خلاف بين المؤمنين يهديهم الله فيه, ولنقف مع هذا النوعين:

اختلاف بغي بين الناس

هذا هو أكثر أنواع الإختلاف في الدين الذي أصيبت به هذه الأمة والأمم التي قبلها, فهو اختلاف بدون سبب حقيقي, وإنما سببه تعد حدود الله مع الوحي.

فمثلا عندما ينزل الله حكما معيناً دون تعليلٍ للحكم, هنا الواجب على المسلم أن يقول سمعت وأطعت, ولا يتعد حدود الله.

فإذا قام زيد من الناس وتعدى حدود الله بالبحث عن علة لحكم الله هذا, وافترض علةً من عنده, سيقوم معتد آخر ويفترض علةً أخرى للحكم, وهكذا ينشأ اختلاف بين الناس.

هذا الاختلاف هل له مسوغ؟

لا هو بسبب تعد حدود الله, ولذلك هو بغي بين الناس ولنضرب مثلا له:

« عن أبي قلابة, عن أبي الأشعث, عن عبادة بن الصامت, قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الذهب بالذهب, والفضة بالفضة, والبر بالبر, والشعير بالشعير, والتمر بالتمر, والملح بالملح, مثلا بمثل, سواء بسواء, يدا بيد, فإذا اختلفت هذه الأصناف, فبيعوا كيف شئتم, إذا كان يدا بيد »

هنا حدد رسول الله صلى الله عليه وسلم الأصناف التي يلحقها ربا الفضل دون أن يذكر علة لهذه الأصناف, فما الواجب على المسلم؟

الواجب عليه أن يقول سمعت وأطعت, ولا يزيد على ذلك.

للأسف تعدى الناس حدود الله, وبدأوا يبحثون عن علة ربا الفضل في هذه الأصناف, وهم بذلك يقعون في شر أعمالهم, لأن أي شيء سيقولونه هو عين الكذب على الله, ومن ذلك أن بعضهم قال:

العلة أن هذه الأصناف تكال وتوزن، وهذا محض القول في دين الله بغير علم، فالله لم يقل أن العلة هي الكيل والوزن.

وقال آخر إن العلة هي القوت والإدخار، وهذا أيضا كذب على الله، لأنه لا وحي من الله يقول أن العلة هي القوت والادخار

وهكذا تعددت الأقوال إلى عشرة أقوال، كلها محض الكذب على الله، وعليه فهذا الاختلاف هو بغي بين الناس وليس له مسوغ فعلي.

هذا النوع من الاختلاف قرين الشرك، لا يفارقه أبداً، لأن المختلفين إنما أعرضوا عن النص، واتبعوا أهواءهم وهذا هو عين الشرك الصريح حيث يُتخذ الهوى نداً لله يشرع مع الله والعياذ بالله.

إختلاف بين المؤمنين

بيّن ربنا عز وجل أنه قد يحدث اختلاف في الحق بين المؤمنين فقال:

فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ

فهو اختلاف بإذن الله وليس بغي بين الناس كالإختلاف الأول.

هذا النوع من الاختلاف قليل جدا، وما يميزه أن المختلفين فيه، كلٌ منهم مطيع لله عز وجل بحسب استطاعته، فكلاهما مسلمٌ لله، متبع لوحي الله عز وجل بحسب قدرته، وهو ينشأ في الحالات التالية:

أن تكون المسألة محل الاختلاف نزلت فيها نصوص عدة، بعضها قيد أو خصص أو نسخ بعض، فأحيانا قد لا يتضح للمسلم النسخ أو التخصيص، فيبقى على حكم النص العام، وهو هنا مطيع لله بحسب استطاعته، وليس متبعا لهواه كما هي حال الكفار، وهذا النوع نادر جدا

أن يغيب بعض الوحي عن أحد المختلفين، فيظل كل منهما متمسك بما علم، وأكثر اختلافات الصحابة رضوان الله عليهم من هذا القبيل.

الاختلاف في فهم النص وهذا أيضا نادر جدا نظراً لبيان النص ويسره بلسان العرب، ولكن نظراً للعجمة التي عند بعض المسلمين قد تغيب بعض المعاني الدقيقة للنص، فينشأ عن ذلك اختلاف.

الإختلاف بين المؤمنين يتميز بكونه قابل لمعرفة الحق فيه بإذن اللّٰه، فالمؤمنون يردون ما اختلفوا فيه إلى الوحي قرآنا وسنة، ومن ثم فإنه يسهل معرفة الحق في المسألة.

بينما الاختلاف الأول يظل قائما بين أصحابه، لأنه أصلا بغي بين المختلفين، ولا حَكَم يرجعون إليه، فقد نبذوا الوحي قرآنا وسنة، وراء ظهورهم ولذلك اختلفوا والعياذ بالله.